

تطور العمائر الاسلامية بتطور وظائفها

بقـم

ر. سعاد ماهر

من الثابت أن الفن الإسلامي التشكيلي قام على أسس من فنون البلاد التي فتحها المسلمون أو خضعت لهم، ذلك أن طبيعة شبه الجزيرة العربية الصحراوية، وانتقال البدو من مكان إلى آخر سعيًا وراء الكلاء والرعى لم يكن يساعد على قيام فنون تشكيلية، اللهم إلا في أطراف شبه الجزيرة، كالمناذرة المتاخمين للدولة الساسانية، والفساستة المجاورين للدولة البيزنطية، واليمن في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة. حيث قامت فنون ضارعت فنون معاصريهم من الفرس والرومان.

على أن الفاتح العربي لم يقبل كل ما وجدته من تلك الفنون على ما هو عليه، بل استبعد منها ما كرهه الدين أو مالا يوافق مزاجه الخاص، ثم جمع ما اختاره منها وصهره في بوتقة بمد أن طبعه بطابعة الخاص، ألا وهو الكتابة العربية. وهكذا نستطيع القول أن الفن الإسلامي أخذ قوامه الروحي من وسط شبه الجزيرة العربية، أما قوامه للمادى فقد تم صوغه في أما كن أخرى كان للفن فيها قوة وحياة.

ولعل أبرز فروع الفن الإسلامي التي تأثرت بالجانب الروحي، هي العمارة، التي عني المسلمون الأوائل أن تكون مهمتها الأولى خدمة الدين، ومن ثم فقد تطورت الممار الدينية تطورا سريعا سائر ركب الحضارة الإسلامية الفتية، فتمددت أشكالها وأساليبها تبعاً لتعدد وتغير وظائفها.

وقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد والأربطة فالمدارس والمصليات والخوانق أو الأسبله والتكايا. على أننا إذا أردنا أن نتتبع تطور العمارة الإسلامية وجدنا أن المسجد حيز الزاوية فيها.

ولقد كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين في مريد النمر الذي بركت فيه ناقته. وكان بناؤه بداييا بسيطا ، وكانت مساحته ٧٠ × ٦٠ ذراعا وجدرانه من اللبن ، سقف جزء منه بسعف النخيل وترك الجزء الآخر مكشوبا وجملت عمد المسجد من جذوع النخل .

وقد نهج المسلمون هذا النهج في بناء مسجد البصرة سنة ١٤ هـ ومسجد الكوفة سنة ١٧ هـ ، كما اتبع عمرو بن العاص هذه السنة في بناء مسجده في مدينة القسطنطين سنة ٢١ هـ . وكانت مساحته وقت انشائه ٥٠ × ٣٠ ذراعا وجدرانه من اللبن وأعمدته من جذوع النخل وتسوده البساطة . وكانت مساجد البصرة والكوفة ومعبر خالية من المحاريب المجوفة ومن النابر والمآذن على غير مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أراد عمرو بن العاص أن يتخذ له منبرا في مسجده . كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا له : «أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقيقك» فكسره ، ولم يقتصر اتباع السنة في ذلك الوقت على بناء المساجد فحسب بل تعداه إلى الدور والمنازل ، فقد حدث بعد وقوع الحريق بمدينة الكوفة أن أرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب وفدا يستأذنه في البناء باللبن فقال عمر «افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة آيات (عرف) ولا تطاولوا في البناء والزمو السنة تلزمكم الدولة» .

وكان المسلمون في العصر الإسلامي الأول يقتصرون على استعمال كلمة المسجد لأماكن العبادة . والمسجد في اللغة هو الموضع الذي يسجد فيه ، فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وزاد عدد المسلمين بزيادة من دخل في الإسلام من أهل البلاد التي فتحها المسلمون ، تمددت المساجد في البلد الواحد ، كما تمددت الألفاظ التي تطلق على أماكن العبادة فأصبح هناك مسجد وجامع . والجامع هو نعت للمسجد لأنه مكان اجتماع الناس ويطلق على المسجد الكبير . وفي ذلك يقول القرظي :

ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة

انضموا إلى مسجد الجماعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا . فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ، وكانت صلاة الجمعة تؤدى في المسجد الجامع (١) .

ومن ثم فقد أصبح لفظ الجامع مدلول سياسى في عهد الدولة الأموية فقد عرف بالجامع ، للمسجد الذى يؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين في صلاة الجمعة أى أن لفظ الجامع أصبح يطلق على مسجد الدولة الرسمى الذى كان يعرف باسم المسجد الجامع .

وبطبيعة الحال لم يبق تخطيط المسجد على ما كان عليه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، بل أخذ يتطور ويسير ركب الحضارة الإسلامية ، فقد رأت الدولة الأموية أن لا تقل مبانيها ، الدينية بصفة خاصة ، قيمة وقدرا عن المعابد المسيحية واليهودية في مصر والشام ومن ثم فقد بنى المسجد الأموى بتخطيط وأسلوب يختلف عن تخطيط المساجد الأولى ، وكان ذلك لضرورة اقتضتها ظروف الدولة الجديدة والشعوب ذات الحضارات والفنون التشكيلية المتقدمة التى دخلت في الاسلام، وأصبحت تكون عناصر هامة في الامبراطورية الاسلامية الناشئة .

هذا ولم تقتصر وظيفة المسجد في المجتمع الاسلامى الجديد على تأدية الصلاة حسب بل كان يؤدى عدة وظائف أخرى لعل أهمها الناحية الثقافية، ففي أروقه وحول أعمدته تعقد حلقات الدرس والوعظ والارشاد . كما كانت تعقد فيه الجلسات لفض المنازعات الدينية والمدنية ، كذلك كان به بيت المال كما كان الحال في المسجد الأموى وجامع عمرو ، وفيه كان جلوس متولى الحسبة . من هذا يفهم أن المساجد في العهد الأموى وأوائل العصر العباسى، على أقل تقدير كانت تمثل دور الحكومة في مفهومنا الحديث ، إلى جانب وظيفتها الأساسية الدينية. وبديهي وقد أصبح المسجد يؤدى خدمات ووظائف متعددة تختلف باختلاف الشعوب والبيئات أن تعدد الأساليب المعمارية في بناء المساجد، وإن اتخذت جميعها مقومات العمارة الاسلامية وجوهرها . فقد كانت معظم المساجد حتى القرن الرابع الهجرى تحتوى

(١) القرينى ج ٢ ص ٢٤٦

على صحن مكشوف تحيط به الأروقة من ثلاث جهات أو من جهتين على أن يكون أكبر الابوانات هـ و رواق القبلة لأهميته كما احتوى كل مسجد على محراب ومنبر ومثدنة وفي كثير من الأحيان على مبخاة .

أما تخطيط المسجد ، فكان غالباً مربعاً في العراق وإيران ومستطيلاً في مصر والشام وشمال أفريقيا . وتتليل ذلك سهل ميسور ، فأما كن العبادة السابقة على الإسلام في بلاد ما بين النهرين كانت ذات تخطيط مربع ونعني بها (الانش جاء) أى بيت النار ، أما في غرب العالم الإسلامى حيث كانت تسوده المسيحية فكانت كنائسهم معظمها ذات تخطيط مستطيل .

وفي النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بدأت تظهر في شرق العالم الإسلامى أسماء جديدة لأما كن العبادة عرفت بالمدارس ، ثم انتشرت في غرب العالم الإسلامى في القرن الخامس الهجرى وهذا التغير في الإسم لابد وأن يكون لحكمة اقتضتها الوظيفة الجديدة أو الدافع المباشر .

كذلك صاحب التغير في الاسم تغيرات جوهرية في التخطيط للمارى . وقد اختلف علماء الآثار والمؤرخون في وظيفة المائر التى عرفت بالمدارس ، ولعل أقربها تلك المناقشة الحادة التى دارت في الندوة العالمية لألفية القاهرة حول هذا الموضوع . وهو هل كانت المدارس في أول نشأتها تؤدي وظيفة المدرسة أو هو مجرد تشابه في الإسم لا في الوظيفة . لذلك رأيت قبل أن أتكلم عن نشأة المدرسة ووظيفتها أن أذكر شيئاً عن أنواع الثقافات التى عني المسلمون بها في المصور الوسطى . ونستطيع أن نجمل هذه الثقافات في قسمين كبيرين ، الأول ويشمل دراسة علوم الأقدمين ، وقد أطلق عليها العرب إسم علوم الأوائل ، وتشمل الرياضة والطبيعة وعلم الفلك والطب والفلسفة وعلم الديانات وما إليها وكانت تدرس في عمائر تسمى (دارالعلم) أما القسم الثانى من الثقافة فيشتمل على العلوم الإسلامية التى تقوم أساساً على القرآن وما جاء فيه من أحكام والحديث النبوى ، ومن هذين المصدرين نشبت دراسات أخرى دينية وقضائية واجتماعية .

ومدينة نيسابور هي أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم)
وكان ذلك في عهد محمود الفزنوي في القرن الرابع الهجري ، وقد أنشئت
المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبو سعيد الأسطرابلي ومدرسة أبو إسحق
الأصفهاني (١) المتوفى سنة ٤١٨ هـ . وقد ظلت هذه المنشآت عمائر عملية مدة خمسين
عاماً ثم قضى عليها تماماً بعد قتل وزير طغرل بك ، إلا أنها بعثت من جديد على
يد نظام الملك أعظم (٢) رجل تولى الوزارة في عهد السلاجقة قاطبة ، يل وأعظم
وزراء الشرق في عصره ، فقد ظل وزيراً لثلاثة من السلاطين هم طغرل بك وألب
أرسلان وملك شاه . وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه
المنشآت الثقافية والدينية في نشر المذهب السني ومناهضة المذهب والشيعة ، وهكذا
أصبحت المدارس منشآت عامة بعد أن كانت خاصة ، يتخرج فيها الموظفون الذين
يتولون إدارة الشؤون الادارية وما إليها في دولة السلاجقة .

وقد أنشأ نظام الملك كثيراً من المدارس الأولى منها في نيسابور وذلك في منتصف
القرن الخامس الهجري وأعقبها في بغداد وطوس والبصرة وأصفهان وهرات وبلغ (٣)
وقد حذا حذوه كثير ممن خلفه من السلاجقة وانتشرت المدارس في كل الولايات
السلاجقية .

وما فعله نظام الملك في إيران وجنوب العراق فعله الأتابكة في الموصل ودمشق
وفعله نور الدين وصلاح الدين في شمال العراق وسوريا . وهكذا نرى هؤلاء
الأمراء ذوي الأصل الكردي أو المغولي والمتعصبين للمذهب السني ، هم الذين
نشروا المدارس في غرب العالم الاسلامي .

نخلص من هذا أن الشيعة هم أول من أنشأ العمار الثقافية التي كانت تعرف من
قبل باسم دار العلم ، كما أنهم أول من أطلق عليها اسم المدرسة ، والقرص الأساسي

(1) L. Mass guon: Ler Nedreah de Bagdöel (B I , F A O) ua I, VII
P P 78 - 9

(2) F q Brown: Literary History of Pers : a, vol II p p 175-214

(3) Van Berchom : (C I A) Egypt p p 25 - 60

من إنشائها هو تدريس ونشر المذهب الشيعى . وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى
إبان حكم محمود الغزنوى . وفى القرن الخامس الهجرى نشر الأمراء الأكراد والغول
ذوى المذهب السنى هذه المدارس فى غرب العالم الإسلامى كما جعلوها منشآت عامة
تشرف عليها الدولة على خلاف مدارس الشيعة الخاصة فى القرن الرابع الهجرى .

وما قيل عن العالم الإسلامى عامة يمكن أن يقال عن مصر خاصة ، فكم نشأت
المدارس فى شرق العالم الإسلامى على يد الشيعة ، على أنها معاهد خاصة ، نشأت
فى مصر على يد السنين كمعاهد خاصة كذلك . فقد جاء فى ابن ميسر^(١) أن الوزير
رضوان بن الوحشى أنشأ مدرسة فى الاسكندرية سنة ٥٣٣ هـ لنشر المذهب الشافعى .
ويقول ابن خلكان^(٢) أن ابن سلال وزير الخليفة الفاطمى الظاهر أنشأ مدرسة
سنة ٥٤٦ هـ فى الاسكندرية كذلك . ويذكر القلقشندى^(٣) أن مسرور أنشأ مدرسة
سنية بالقاهرة فى عهد الدولة الفاطمية ، فلما جاء صلاح الدين إلى مصر نشر هذه
المنشآت الثقافية وجعلها عامة بعد أن كانت خاصة من قبله . وكان غرضه الأول من
ذلك هو القضاء على المذهب الشيعى مذهب الفوالم وذلك بنشر المذهب السنى عن
طريق المدارس .

أما عن التخطيط المعمارى للمدرسة فمن الثابت أن التخطيط الأول كان عبارة
عن إيوان واحد فى الضلع للمواجه للقبلة أما الأضلاع الثلاثة الأخرى فكانت تحتوى
على غرف للطلبة وذلك لأن المدارس كان معظمها مخصصة لمذهب واحد ، فقد أحصى
كرزويل ثمانين مدرسة فى سورية بينها ٣٣ مدرسة مخصصة للمذهب الحنفى و(٣١)
المذهب الشافعى وتسع للحنابلة وواحدة للمالكية ومن بينها ست مدارس للمذهبيين
هما الشافعية والحنفية .

أما عن مدارس مصر فقد أمدنا المقرئى بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية
فقد أحصى عدد المدارس الموجودة حتى عصره فى القرن (١٥) وتبلغ (٧٣) مدرسة
وقد قام الأستاذ كروزويل بترتيبها ترتيباً زمنياً ، ودرس الوجود منها حتى الآن
فتبين له أن المدارس الأولى كانت ذات إيوان واحد لأنها كانت مخصصة لمذهب
واحد . وأول مدرسة خصصت لمذهبيين كانت المدرسة الفاضلية التى أنشأها

(١) ابن ميسر : نشر ماسيه Massé ص ٨٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ ص ٤٣ ، ج ٢ ص ١٣ ، ١٤

(٣) القلقشندى : صبحى الأعشى ص ٣٥٦

صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ المذهب والمالكي والشافعي، وذلك بعد بناء المدرسة الأُسدية في أول مدرسة خصصت للمذهبين في سوريا سبقت مصر بـ مائتي عشرة عاماً. وتعتبر المدرسة الكاملية المبنية سنة ٦٢٢ هـ والتي ما تزال باقية، وأن كانت في حالة خربة، أقدم مدرسة ذات أيوانين باقية حتى الآن. وما يؤيد أن المدرسة الكاملية كانت تحتوى على أيوانين فقط، أن الجانب الشمالى الشرقى من المدرسة يشغله الآن حمام يعرف باسم حمام السلطان وعلى خريطة الحملة الفرنسية يعرف باسم حمام بيصارى الذى حل محل قصر الأمير بيصارى الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٦٥٩ هـ .

والمدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين سنة ٦٣٩ هـ والتي احتلت جزءاً من قصور الفاطميين، إذ يقول المقرئى أنها تقع بحى بين القصرين فى القاهرة وأنها من جملة القصر الكبير الشرقى، وهى مع احتوائها على أربعة أيوانات للمذاهب السنية الأربعة إلا أن تخطيطها يعتبر فى الواقع تكراراً للمدرسة ذات الأيوانين إذ أنها تتكون من مجموعتين تفصل بينهما حارة الصالحية الآن ويجمعهما مدخل للمدرسة الرئيسى الذى تعلوه المئذنة .

وكان المقرئى دقيقاً فى وصفه للمدرسة إذ يقول عنها :

فبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين، فأبتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ١٥ ذو الحجة سنة ٦٣٩ وفى سنة ٦٤١ هـ رتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة وهو أول من عمل بمصر دروساً أربعة فى مكان واحد، ودخل فى هذه المدرسة باب القصر المعروف بالزهومة وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن .

والجزء الباقى من هذه المدرسة هو المجموعة الجنوبية التى تتكون من أيوانى الشافعية فى الشرق والمالكية فى الغرب أما المجموعة الثانية التى تتكون من أيوان الحنفية فى الشرق وأيوان الحنابلة الذى حل محل باب الزهومة فى الغرب فقد بنيت

مكانها مجموعة من الخوانيت وأن كانت واجهه المجموعة ما تزال موجودة وبجالة
لا باس بها .

وتعتبر المدرسة الصالحية أول مدرسة في مصر ذات أربعة أيوانات ولكنها
ليست متعامدة كما أنها ليست أول مدرسة في العالم الإسلامي درست المذاهب الأربعة،
فقد سبقتها المدرسة المستنصرية (١) في بغداد بعشر سنوات والتي خصصت للمذاهب
الأربعة بالإضافة إلى دارين أحدهما للحديث وأخرى للقرآن ، أى للقراءات السبع .
وبرغم تخصيص هذه المدارس الأربعة إلا أن تخطيطها غير متعامد كما أنها لا تشبه
تخطيط المدرسة الصالحية .

على أننا نستطيع القول بأن أول مدرسة في مصر احتوت على أربعة أيوانات
متعامدة هي المدرسة الظاهرية التي بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى سنة
٦٦٢ هـ وتمت في سنة ٦٦٢ هـ وتشغل قاعة الحليم وباب الذهب من القصر الشرقى
الكبير (٢) . وللأسف لم يبق من هذه المدرسة غير إيوان واحد هو الإيوان الجنوبى
الشرقى وبه المحراب وكتلة من الواجهة مساحتها ١١ × ٥ متراً ملاصقة لضريح
الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بسوق النحاسين شارع المعز لدين الله الآن
(الصاغة) . فقد تهدمت المدرسة سنة ١٨٨٢ عندما شق طريق بيت القاضى وقد
ترك لنا المقرئى من التفاصيل الدقيقة ما يؤيد ما ذهب إليه بحوث الأثريين في
القرن العشرين فهو يقول . وجلس أهل الدروس كل طائفة في إيوان، منها . الشافعية

Massignon : Le Medraseh de Bagdad P.80 & Herzfeld :
Archaeologische Reise im Euphrat und Tigrisgebiet II.P.161. & Creswell:
Origin of the Cruciform Plan of Cairere Madrossas .P.36.

(٢) المقرئى ج ٤ ص ٢١٦ (طبعة النيل) .

بالايوان القبلى . والخنفية بالايوان البحرى . وأهل الحديث بالايوان الشرقى والقراء
بالقراءات السبع بالايوان الغربى » .

على أن أول مدرسة خصصت للمذاهب الأربعة في مصر وذات تخطيط متعامد
هى المدرسة الناصرية . وهى تقع بجوار القبة المنصورية، فى شرقها كان موضعها حماما
فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بإنشاء مدرسة موضعه .
فأبتدىء فى وضع أساسى وارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى
بظاهرها فلما خلع كتبغا وعاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة
للمرة الثانية سنة ٦٩٨ هـ . فأمر بأكملها فأكملت سنة ٧٠٣ هـ . وإلى هذه المدرسة
نقلت واجهة كنيسة بعا كان قد استولى عليها السلطان الاشرف خليل بن قلاوون
سنة ٦٩٠ هـ . ونقلها إلى القاهرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى (١) .

وإذا جازلنا أن نقول أن المدارس إنما إنتشرت فى مصر فى العصر الايوبى لمحاربة
المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى . فإن تصميم مدرسة السلطان (٢) حسن بن محمد
ابن قلاوون التى بدأ إنشاؤها سنة ٧٥٧ هـ يدل دلالة واضحة على أنها إنشئت بقصد
الثقافة والعلم بالإضافة إلى الدعوة إلى السلطان . وتتكون المدرسة من أربعة إيوانات
متعامدة تحيط بالصحن خصصت للمذاهب الأربعة وبجانب كل من الايوانات
الأربعة مدرسة .

وتبلغ مساحة المدرسة الخنفية على سبيل المثال ٨٩٨ متراً مربعاً . ويتكون تخطيط
المدارس الأربعة جميعها

من ايوان وصحن تتوسطه فسقية ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن
المدرسة وعلى الواجهات . وقد قرر السلطان حسن لهذه المدارس مدوسين

(١) المؤرخى ج ٤ ص ٢٢٢ .

(٢) هرتس ناشا : تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ .

ومراقبين وعين لهم مرتبات^(١). كما قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب وعين طبيين أحدهما باطنى والآخر كحال يحضران كل يوم بالمسجد مداواة من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلبة . ورتب ثالثاً جراحاً . وقد أُرصد في وقتيه مرتبات الأساتذة والطابة والموظفين وقيمه ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وما يصرف لهم في الأعياد .

وهناك رأى للدكتور أحمد فكري، لم يسبق إليه خاصاً بوظيفة المدرسة ، وقد جاء في البحث الذى تقدم به سيادته للندوة العالمية وموضوعه خصائص عمارة العصر الايوبى ، فقد أثبت أن وظيفة المدرسة الرئيسية لم تكن هى التدريس فحسب . فقد كانت المساجد تتخذ للتدريس منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك في مسجد قباء . وفي مصر كانت الدروس تلقى في جامع عمرو وفي الجامع الطولونى والأزهر والحاكم . بل أن وظيفة المدرسة الرئيسية في العصر الايوبى كانت إعداد أماكن ملحقة بموضع التدريس لسكنى طبقة مختارة من المدرسين والطلاب . وإنى إذ أوافق أستاذنا الدكتور أحمد فكري على ما ذهب إليه من الناحية المعمارية وهو أن المساجد الجامعة التى كانت تلقى فيها الدروس على أقل تقدير منذ القرن الثانى للهجرة . لم تكن فيها أماكن لسكنى المدرسين والطلاب . وأننى أرى أن السبب الأساسى فى نشأة المآثر التى عرفت باسم المدرسة لم تكن فى الواقع القصد منها إيجاد أماكن للمدرسين والطلبة . وإنما يرجع إلى عامل سياسى دينى مذهبى « القصد منه هو نشر المذهب المخالف لمذهب الدولة الرسمى متخذين من اسم المدرسة ستاراً يتسترُونَ وراءه . فالمدرسة البيهقية والسميدية ومدرسة أبواسحق الاصفرانى التى أنشئت فى عهد محمود الغزنوى فى القرن الرابع الهجرى فى نيسابور كان القصد منها نشر المذهب الشيعى المناهض لمذهب الدولة العباسية السنى . كما أن إطلاق اسم

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٨٤ .

المدرسة على تلك العمار التي أنشئت في مصر في عهد الدولة الفاطمية في القرن الخامس الهجري على يد الوزير رضوان بن الولخش وابن سلار في الاسكندرية وابن مسرور في القاهرة لنشر المذهب السني كان القصد منه مناوأة مذهب الدولة الفاطمية الشيعي . فلما جاءت الدولة الايوبية بعد دولة الفواطم وجدت في هذه المنشآت المسماة بالمدارس بنيتها في نشر المذهب السني والقضاء على المذهب الشيعي ، فاكثرت مروح بنائها حتى بلغ ما أنشئ من المدارس في العهد الايوبي أربعة وعشرين مدرسة في القاهرة واثنين في الفيوم ، وجمعت منشآت عامة بعد أن كانت منشآت خاصة في العهد الفاطمي . ثم أخذت في تطوير عمارتها حتى أصبحت تفي بكل مطالب المدرسة من صلاة وتدريس وإيجاد أماكن للدارسين . وقد اكتمل التخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي ومن أحسن الامثلة لها مدرسة السلطان حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٥٧ هـ .

ومن العمار الدينية الهامة عند المسلمين الخانقاوات التي انتشرت في القرن الرابع للهجرة جمعت لا يواء الصوفية فيها للعبادة . أما عن نشأة التصوف فيذكر القرظي (١) نقلا عن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، أن المسلمين بعد رسول الله لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لافضيلة فوقها فقبل لهم الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثاني سمى من صحبه الصحابه التابعين ، وقبل لحواص الحواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد . وانفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله باسم متصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة وغلبت التسمية على هذه الطائفة فيقال رجل صوفي وللجماعة الصوفية .

وهناك رأي آخر في نشأة التصوف في الاسلام يورده للقرظي ولكنه لا يفسره

(١) القرظي ج ٤ ص ٢٧١

قال : « المتصوفون ينسبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورأى ثالث قال : « أنه من الصفاء » .

أما عن الخاتمة مبان لسكنى هؤلاء المنقطين ، فإن أول من اتخذ بيتا للمعبادة زيد بن صوحان بن صبرة وذلك إنه عمده إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للمعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دوارا وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وهناك نرى أن عمار الزهاد نشأت منذ القرن الأول للهجرة وسكنها انتشرت في شرق العالم الاسلامي في القرن الرابع ، أما في مصر فقد انتشرت المباني المخصصة لإقامة الزهاد المنقطين للمعبادة الذين عرفوا بالتصوفين في العصر الايوبي ، فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي أول دار لهم . وقد عرفت هذه الدور في مصر كما عرفت في مشرق العالم الاسلامي باسم الخانقاة أو الخانكة . وهي كلمة فارسية معناها البيت وقيل أصلها خوتقة أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . وعرفت خانقاة صلاح الدين باسم الخانقاه الصالحية وهي بخط (١) رجة باب العيد من القاهرة وكانت أولا دارا تترق في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء . فلما تولى صلاح الدين ، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من خارج البلاد ووقفها عليهم في السنة تسع وستين وخمسة ورتب لهم معاشهم .

وتبين من الفقرة السابقة التي أوردتها للقريزى ، أن خانقاه الصالحية كانت عبارة عن دار فاطمية قديمة اتخذت دارا للصوفية وبذلك نستطيع القول أن الخانقاة وجدت في العصر الايوبي أما اتخاذ تخطيط معمارى خاص بها فلم يظهر إلا في العصر المملوكى . ولعل أقدم الامثلة لها وأكملها الخانقاة التي بناها ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى قبل أن يسلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ في بنائها سنة ٧٠٦ هـ وبنى بجانبها رباطا كبيرا

يُوصَل إليه من داخلها وجعل بجانب الخاتمة قبة لكي يدفن بها . ومن جملة شبايك القبة كما يقول المقرئ الشباك الذي حمله الأمير أبو الحارث البساسيري من بغداد لما غلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله ووضع بدار الوزارة الفاطمية ولدتفر فيها إلى أن عمر ببيرس الخاتمة المذكورة فجعله بالقبة .

وتقع الخاتمة بحى الجمالية وهى من جملة دار الوزارة الكبرى وتبلغ مساحتها فدانان وثلاث فدان . وتتكون الخاتمة من صحن على جانبيه الشرق والغرب ابوانان معمودان وهى فى ذلك تشبه المدارس ذات الابوانين . أما الجانبان الآخران فقد أنشئ بهما خلوات للصوفية بعضها فوق بعض .

ومن الممار التي انتشرت فى العصر الايوبى الاضرحه التي أخذت شكلا معيناً وهو مربع مغطى بقبة . على أن إقامة الاضرحه ليست حدثاً فى العصر الايوبى ، فقد أقامت الدولة الفاطمية كثيراً من الاضرحه وقصرتها على أهل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة مثل السيدة نفيسة ورقية وعاتكة والجمهرى وبدر الجمالى وعرفت بالمشاهد ، أسوة بما أطلق على أضرحه الأئمة من العلويين . فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الانظار عن اضرحه الشيعة وذلك ببناء أضرحه لأئمة السنة ، فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الامام الشافعى سنة ٦٠٨ هـ واجرت عليها الماء من بركة الحبش ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مقابر موتاهم بجوار الامام الشافعى وعرفت تلك المنطقة المجاورة بالقرافة الصغرى . ويعتبر ضريح الامام الشافعى اكبر الاضرحه فى مصر على الاطلاق وأقدم قبة خشبية بمصر وذلك إذا استبعدنا الاضرحه الملحقه بالمدارس والخانات ، إذ تبلغ مساحته ٤٠٠ متر مربع تقريباً وارتفاعه ٢٩ متراً . ومن الطريف أن قبة الامام الشافعى علوها عشارى طولها متران ونصف وقد اختلف المؤرخون والاثريون فى تفسير وجود العشارى فوق القبة ، فقال البعض أنها أعدت لوضع الحبوب للطيور والبعض الآخر قال أنها رمز على أن الامام الشافعى بحر فى العلوم والمعارف اعتماداً على قصائد

الشعر التي احتوت هذا المعنى والتي تذكر منها بعض أبيات من قصيدة البوصير صاحب
البردة :

بقية قبر الشافعي سقينة رست في بناء محكم فوق جلود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره استوى الملك من ذلك الضريح على الجودي
وقال أبو الفتح موسى بن ملهم في القرن الرابع عشر :

مررت على قبة الشافعي فعابن طرفي عليهم العشاري
فقلت لصحبي لا تمجبوا فان المراكب فوق البحار

على أني أرى بالإضافة إلى المعنى السابق أنه يريد بالإضافة إلى وصفه بالعلم بأنه
بحر العلوم والمعرفة أنه لا يقال من أئمة الشيعة ، الذين قصر القواطم لفظ الامامة
عليهم درجة ومنزلة .

ومن الاضحة الهامة في العصر الايوبي ضريح السادات الثمالية ، والخلفاء
العباسيين وضريح شجر الدر ، ثم ضريح الصالح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره
أول ضريح الحق بمدرسة . ثم أصبحت الناعدة بعد ذلك الحاق القباب بالمدارس
والمساجد والخانقوات .

أما في العصر العثماني فقد اختلف تصميم المساجد اختلافا كبيرا عن العمار الدينية
السابقة فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة . وهنا لا نستطيع القول
أن الوظيفة هي الدافع في تغيير تخطيط المساجد العثمانية ، بل هو دافع سياسي
أرادت به الدولة العثمانية صوغ الولايات التابعة لها بتبعية فنية لتأكيد التبعية السياسية.

فقد اتخذ العثمانيون من طراز المصليات السلجوقية في القرن الخامس الهجري
ساسا لعمارهم الهامة (١) . وكان قوام التخطيط العثماني هو القبة الكبيرة المبنية من

(١) نجد وصفا مفصلا لمصلى (Barsiyan) بإرسيان بالقرب من أصفهان للقدس
في كتابه احسن التقاسيم .

الحجر عادة وتحيط بها من جميع الجهات فيما عدا جهة القبلة أيوانات محمولة على
 اكتاف تملوها قباب ضخمة . ومن أحسن الأمثلة لذلك مسجد سنان باشا ومسجد
 محمد علي بالقلمة الذي يعتبر نسخة من مسجد السلطان أحمد باسطنبول .

ومن المأثر الدينية الأخرى في العصر العثماني غير المساجد ، التكايا التي حلت
 محل الخانات في العصر العثماني إذ أنها تؤدي نفس الوظيفة أي أنها خاصة بإقامة
 المنقطعين للعبادة ولـكنها تطورت بعد ذلك وأصبحت خاصة بإقامة العاطلين من
 العثمانيين الوافدين على البلاد ، ومن هنا قيل عنها أنها مأوى (تنابلة السلطان) ، أي
 الكسالى الذين لا عمل لهم . أما من حيث التخطيط فهي مجموعة من الطرز والأساليب
 المعمارية فهي أساسا تشبه تخطيط المنزل الإسلامي ذي الصحن المتسع وتوجد بالدور
 الأرض مجموعة من الأيوانات والقاعات المنسمة ومسجد . وبالادوار العليا توجد غرف
 ظلميت ثم يلحق بالتكسية مطبخ ودورات مياه ومنزل لشيخ التكسية .

